قراءة سوسيوفلسفية للعلاقة بين ظاهرتي الدين والثقافة

A sociophilosophical reading of the relationship between the phenomena of religion and culture

براهيم معيوش

جامعة مولود معمري (الجزائر)، mayouchebrahim@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/10/20 تاريخ القبول: 2024/03/29 تاريخ النشر: 2024/04/24

ملخص: ما من شك أن الدين بصرف النظر عن جوهره وطبيعته كان منذ حقب موغلة في التاريخ وما يزال إلى يومنا هذا احدي الفواعل الرئيسة التي تحرك المجتمعات ومكونٌ أساسيٌ من مكوناتها التي تشكلت تلبية لحاجة اجتماعية عند الإنسان ، فهو وسيلته المثلى في بناء العلاقات الاجتماعية التي تتوطد بفعل الثقافة التي هي في الأصل مجموع أفكار وقيم وعادات يتشاركها الأفراد في ما بينهم وهو ما يسمح لنا بالقول أنَ ما هو جزء من الثقافة هو أيضا جزء من الدين بحكم أن تلك العوائد والقيم التي يتعارف عليها مجتمع معين كثيرا ما تكون من تعاليم الدين كما أنَها أيضا تراث ثقافي أصيل تتناقله الأجيال وتحافظ عليه ، وهي الفكرة الرئيسية التي هدفنا إلى بيانها في هذا المقال بمعرفة حدود العلاقة بين ظاهرتي الدين والثقافة، وقد توصلنا إلى نتيجة أساسية مفادها أنَهما مترابطتان ترتقيان بحياة الإنسان و تُلبيان له حاجات معنوبة ومادية كما أنَهما تتكاملان لغرض ضمان استمرارية المجتمع وحفظ استقراره

كلمات مفتاحيه: قراءة ،العلاقة ،الدين ، المجتمع، الثقافة ،

Abstract: . There is no doubt that religion, regardless of its essence and nature, has been since ancient times in history and remains to this day one of the main factors that move societies and an essential component of their components that were formed to meet a social need among humans, It is the ideal means of building social relations that are consolidated by culture which is essentially a sum of ideas, values, and customs that individuals share with each other. This allows us to say that what is part of culture is also part of religion, by virtue of the fact that those customs and values that are recognized by society It is often part of the teachings of religion, and it is also an authentic cultural heritage that is passed down from generation to generation and preserved This is the main idea that we aimed to explain in this article by knowing the limits of the relationship between the phenomena of religion and culture. We have reached a basic conclusion that they are interconnected, elevate human life and meet his specific and material needs. They also complement each other for the purpose of ensuring the continuity of society and preserving its stability.

Keywords: reading ; Relationship; Religion; the society; culture

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

لقد أصبح غنّيا عن البيان بالإضافة إلي كون الإنسان اجتماعيٌ بالطبع أنّ كل المجتمعات الإنسانية لها ثقافتها الخاصة بها تعمل على ترقيتها والسُّمو بها لإبعادها ما أمكن عن الاختلال الذي يُمكن أنْ يعتري نظامه الاجتماعي ليفقده توازنه، كما لها أيضا دين يكفل للأفراد الانتماء ويطبع هويتهم التي تبرر وجودهم إذ أنَ الأديان من دون استثناء ما هي في الجوهر إلا مجموعة من العقائد تمنح الإنسان معرفة للكثير من الظواهر الكونية المعقدة التي تتجاوز فهمه زيادة على إشباع الحاجات التي تعد أساس وشرط الاجتماع الإنساني كالتكافل والتضامن والانسجام وكل ذلك طبعا في سبيل الحفاظ على البناء الاجتماعي بمكوناته المتعددة، وببساطة فإن حاجة الإنسان للثقافة وللدين كحاجة العينين إلي الضوء ، وقد تناول الباحثون بالدرس وبشكل أوفى كلا الظاهرتين من وجهات نظر مختلفة وتعرضوا إلى وظيفتهما الاجتماعية والنفسية والعقائدية وأبرزوا قيمتهما وفوائدهما للمجتمع، لكن قلة من حلَل وناقش قضية طبيعة العلاقة بينهما وهو الهدف الأساسي الذي نتوخاه في هذه الورقة البحثية التي نبتغي من خلالها إبانتها بشكل أكثر وضوحا لكن رأينا من تمام الفائدة قبل أن نخوض في الحديث عن العلاقة بين ظاهرتي الدين والثقافة من المنظور السوسيوفلسفي أن نستعرض في ما يتضمنه هذا المقال من عناصر تعاريف عدة لكل منهما بغية الخروج من فوضى الآراء لنذكر بعده بعض التجليات حول ظاهرة الدين ثم نردفه بعنصر أخر نذكر فيه خصائص وميزات الثقافة .

2. تعريف ظاهرة الدين وذكر بعض تجلياتها

1.2 تعريف الدين:

الدين ظاهرةٌ قديمة جدا وهذه الاقدمية لا تعود فقط إلى العهود القريبة التي مضت والتي أسفرت عن ظهور الحضارة واكتشاف الكتابة وإنَما إلى أولى إرهاصات الحياة الاجتماعية للإنسان على وجه الأرض ، فالعلاقة بين هذا الأخير وبين ظاهرة الدين علاقة تتجاوز كل الحدود والحديث عنه هو حديث في الجوهر عن الدين والعكس صحيح فإذا ما أصبح شائعا عند الخاصة وعند العامة أنَ الإنسان حيوانٌ عاقلٌ ناطقٌ فإنَ بعضا من أعلام الفكر الإنساني زادوا إلى ظاهرة النطق هذه التي تميَز الإنسان عن غيره من المخلوقات داخل المملكة الحيوانية ظاهرةٌ أخرى وهي التدَين على غرار الفيلسوف هيجل حيث ذكـر: (أنَ الإنسان وحده يُمكن أنْ يكون له دين أما الحيوانات الأخرى تفتقر إليه بمقدار ما تفتقر إلى القانون والأخلاق) 1 ، وقد كانت هذه الظاهرة منذ أزمنة غابرة مُكوَنٌ رئيس

من المُكونات الرئيسية في حياة المجتمعات ولم يستطع الإنسان الاستغناء عنها وهذه الفكرة يشهد بها التاريخ الذي يُؤكد أنَ الدين كان الأساس الفكري والثقافي لكل المجتمعات فهو فطريٌ ولا علاقة له بملابسات الزمن ولا البيئة وهذا الأمر هو الذي دفع ببعض من العلماء إلى المبالغة والتعصب لفكرة وجوب التدَين عند الإنسان على غرار الفيلسوف الفرنسي إرنست رينان صاحب الأطروحة الشهيرة حول الفيلسوف الإسلامي ابن رشد حيث قال :(إنَه من الممكن أنْ يضمحل كل شيء نحبه وأنْ تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة لكن يستحيل أنْ ينمحي التدين) 2، وبالرغم مما كتب في موضوع الدين إلا أنَه كظاهرة لا يزال يمثل مضغة أفواه الكثير من العلماء والمفكرين وساحة مستباحة اقتحمها دارسون في مختلف الاختصاصات ذلك أنَه بحكم الواقع والتاريخ اعتقادٌ ذاتيٌ وممارسة شخصية له جوانب موضوعية تختص ببحثها مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية ، ثم إنَه ظاهرةٌ عامةٌ مؤثرة في مختلف جوانب الحياة الإنسانية ما يجعل منه شأنٌ عام وبالتالي من حق حتى العامة من الناس أنْ يُفكَروا فيه ويتخذوا موقفا منه وفقا لتقيمهم الشخصي وإرادتهم الشخصية 3 فالدين هو الذي يمنح الجميع تصورا اعتقاديا لوجودهم في هذا الكون كما يُقدم لهم تفسيرات لما يُحيط بهم من ظواهر غير مفهومة بصرف النظر عن صحتها أو خطئها.

بصرف النظر عن التعريفات التي ذُكرت في القواميس والمعاجم التي تفتقر إلى الدقة ولا تُشفي غليل الباحث عن المعنى الحقيقي والعميق للدين ووضعت فقط لضبط المصطلح لفظا يعد الدين من المفاهيم المعقدة التي أشكل على العلماء وضع تعريف تجتمع الآراء حوله فمن المنظور الفلسفي مثلا نجد أن الفلاسفة يجمعون بين الفكر الفلسفي والفكر الديني أو بالأحرى بين ملكة العقل الفطرية التي تتدبر وتتفكر وبين الدين الذي يلجأ إليه الإنسان كذلك ليتأمل ويُفسَر الظواهر التي تتجاوز فهمه وسيلته في ذلك عقله ، فالفيلسوف الألماني إيمانويل كانط يقول أن الدين هو: (الشعور بالواجبات من حيث كونها أوامر إلهية سامية)4 ، وتقريبا نفس الشيء يشير إليه مواطنه الفيلسوف شلاير ماخر الذي ركَز في تعريفه للدين على حالة الضعف التي تعتري الإنسان أمام قدرة خفيَة مطلقة مُطلَعة على خفايا الأمور وتتحكم في شؤونه حيث قال أنَ الدين هو: (خضوعنا لوجود لا يناله إدراكنا أو إنَه خضوع الإنسان إلى موجود أسمى منه) 5، والحال نفسها مع المتخصصون في علم الاجتماع الذين حاولوا قدر الإمكان دراسة الظاهرة بعيدا عن المواقف الإيمانية التي تغلب عليها العاطفة اختلفت نظرتهم للظاهرة والكل يدلي بدلوه فيها فمنذ الكتابات الأولى في هذا الحقل المعرفي التي حاز ابن خلدون على أفضلية السبق إليها كما يعترف بذلك الكثيرون تحدث بإسهاب عن الدين

وعن مكانته في حياة الجماعات البشرية حيث ذكر أنَ سياسات الحكم وتشريعاتها المتنوعة في الأصل نوعين اثنين إحداهما هي السياسة العقلية ويقصد بذلك ما استطاع الإنسان بملكة عقله الفطرية أنْ يُنتجه من أفكار يرى هو أنَها قاصرة كونها من وضع الإنسان ليست ذات نفع مطلق في الحياتين الدنيا والآخرة وثانيهما هي السياسة الدينية المستمدة من الوحي التي يكون بدوره من فعل إلهي فنراه يقف بوضوح إلى جانب هذه السياسة الدينية التي يقول عنها أنَها أكثر موضوعية وشمولية لما تجلبه من نفع للإنسان في حياته وحتى من بعد مماته ولعل من يقرا لأبن خلدون قراءة فاحصة يفهم أنَه يُضفي صفة القصور والنسبية في الكمال للنظم العقلية كما يرفض الأحكام الوضعية الجائرة في كثير من الأحيان ثم يدفع في تيار وجوب تقديم الخلافة الشرعية المستمدة من الدين لحماية العمران ولتنمية الحضارة البشرية ككل، أما الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي (إيميل دوركايم) يرى أنَ التعريف بهذه الظاهرة خطوةٌ لابد وأنْ يؤخذ فيها بعين الاعتبار فكرة القبول به في كل الديانات القديمة منها والحديثة ، البسيطة والمعقدة ، وبمعنى آخر أنْ نبحث عن الخصائص التي تتشارك فيها كل الأديان وقد قد ذكر في تحليله لهذه الظاهرة أنَ الوجود أو العالم مقسَمٌ إلى قسمين اثنين أحدهما مقدس والآخر مدنس فكل التصورات الدينية ما هي في الجوهر إلاَ تعبيرٌ عن حقيقة الأشياء المقدسة وبيان علاقتها بالأشياء المدنسة وبناءا على رأيه هذا قدَم التعريف الآتي ذكره: (الدين نظامٌ متسق من المعتقدات والممارسات التي تدور حول موضوعات مقدسة يجري عزلها عن الوسط الدنيوي ويُحاط بشيء من أنواع التحريم وهذه المعتقدات والممارسات تجمع كل المؤمنين والعاملين بها في جماعة معنوية واحدة) 6 و االستنادا إلى ما ذكرناه ونحن نتحدث عن ماهية الدين لا يسعنا إلا القول أنه من المصطلحات التي يصعب فيها الخروج من الاضطراب المفهومي وفوضى الآراء والتصورات والأقاويل وفي نظرنا هذا الشيء هو الذي جعل الافهام حوله تختلف من مجتمع لأخر وما يُفهم في دين من الأديان لا يُفهم في أديان أخرى بنفس الشاكلة.

2.2 تجليات حول ظاهرة الدين:

بعد عرضنا لجملة الآراء والتصورات والأقاويل عن مفهوم الدين نرى أن فهمه قهما وافيا كظاهرة لا يكون بالتعمق في مشكلة التعريف وإنما في معرفة القدر المشترك الذي تنطوي عليه في جملتها كل الأديان من دون استثناء منذ أشكالها الأولى إلى يوم الناس هذا فمع أنَها تتفاوت في مصادرها وأهدافها أو حتى قيَمها ومبادئها لكَنها تتشارك على حسب ما توصلنا إليه في نقطتين اثنتين لا يمكن

إغفالهما في حديثنا عن أي دين من الأديان المتعددة وهما اللّتان تساعدان بشكل أكثر عن عزلها عن بقية ظواهر الثقافة الإنسانية هاتين النقطتين تتمثلان أساسا في الطقوس والمؤسسة الدينية.

1.2.2 الطقوس: تعني بشكل عام مجموعة من الأعمال التقليدية التي لها علاقة بالدين يُحدد العرف أسبابها وأغراضها وهي مشتقة من حياة الإنسان الذي يمارسها معتقدا أنَ أدائها يرضي الآلهة والقوى فوق الطبيعية والمعبودات وعدمه يُسبب غضبها ويجلب نقمتها ، وتتميز بطبيعتها الرمزية و القوية في نفوس الأفراد وتُعبَر عن قيَم اجتماعية مهمة حيث تنَصُ على الربط بين أفراد الجماعة الواحدة وعلى إنشاء رموز تساعد الإنسان على بناء عالمه بشقيه المادي والمعنوي وهذا من شأنه أن يجعل من الفعل أو التجربة الدينية في الجوهر فعلا طقوسيا تُنظمه قواعد من طبيعة مقدسة ذات سلطة قهرية ملزمة ضابطة لتتابع بعض الحركات الموجهة لتحقيق غايات ذات وظيفة محددة 7، ولعله ليس من قبيل العبث بالحقائق القول أنَ الدين لا يكون ذو فعالية إلا بواسطة الطقوس فهي التي تولد الشحنة عند الفرد والجماعة على حد سواء لإحياء الحدث المقدس الذي تُدرك دلالته ضمن المنظومة الاعتقادية الخاصة بهما ثم إنَ الفكرة الدينية دائما بحاجة إلى التجسد في صورة معينة يُجدد بها المتدين عهده بعقيدته وهذا الشيء تحديدا تكفله الطقوس التي تقام بشكل دوري متكرر فعلى العموم الحياة البشرية في جانبها الروحي ذات مستويين اثنين أحدهما كائن في وعي الأفراد و هو مستوى التصورات التي تتصل بالأشياء المنظور إليها من منطلق أنَها مقدسة والأخر هو مستوى الممارسات التي تظهر في أفعال الأفراد وتصرفاتهم وقد أشار هربارت سبنسرفي كتابه مبادئ علم الاجتماع إلى وظيفة الطقوس وأكد على أنها : (من أنجع وسائل الضبط الاجتماعي لأنَها مُنظَمة للسلوك الإنساني عن طريق الكف من ناحية والتوجه والإرشاد من ناحية أخرى) 8 ، فممارستها بالشكل الدوري بين الفينة والأخرى كما سبق وأشرنا تضع المنخرطين فيها في حالة من التوازن العاطفي الذي يفتقدونه في حياتهم العادية اليومية خاصة وأنَ كلا منهم يعيش لذاته ، لكن عندما يتم الاشتراك في نفس الممارسة الطقوسية يُعاد تثوير الضمير الجمعي ويتَم تنشيطه من جديد الشيء الذي يسمح للأفراد بالدخول في حالة من الطمأنينة والرضا وقد أشار إلى هذه الفكرة دوركايم في مؤلفه الأشكال الأولية للحياة الدينية قائلا: (يتشكل لدى الأفراد من خلال حضورهم الجماعي نزع من الشعور الجمعي لا يتم إدراكه وهم في حالتهم الفردية) 9 فالفرد كثيرا ما لا يستشعر حالة الفراغ في حياته ولا يولى للأمر أهمية كما لا يجد الوسيلة الفضلى لملأ هذا الفراغ وهنا تتدخل الطقوس الجماعية ليكون الدور كله منوطٌ بها لتوفر نوعا من العلو والتسامي لا تستطيع الحياة اليومية العادية بما فيها من روتين أنْ تمنحها إياه كما توَلد

عنده أيضا قوة جديدة يتم عن طريقها تجاوز الصفة الفردية التي يتسم بها الإنسان بالضعف والوهن إلى الصفة الجماعية التي يكون فيها أكثر حيوية وحرارة وهو ما يزيد من الدلالة على أنَه في عمق كل ذات فردية ذات جماعية لا يتم تحسسها ولا استشعارها إلا بعد الممارسة الطقوسية التي تحييها وتحركها ، فهي من جهة طاقة كامنة ومصدرٌ للقوة يتم الاستعانة بها في الفترات التي يمر بها الفرد أو الجماعة على حد سواء بمحن وويلات ومن جهة أخرى وسيلة للدلالة على حالة الرضا في بعض من الحالات وفي كلتا الحالتين ممارستها يكون من منطلق إتيان المأمورات والابتعاد عن المنهيات وكذلك غرس الفضائل واقتلاع الرذائل طبعا على حسب ما تدعو إليه شرائع الأديان على اختلافها ومن دون إغفال فكرة أنَ الهدف الأسمى والغاية الكبرى منها هو تقوية العلاقة بين الإنسان وما يُؤمن بها من معبود.

2.2.2 المؤسسة الدينية : بعد أنْ نشأ الدين عن طريق التفاعل بين التجارب الإنسانية والطبيعية والكون وتبيَن دوره في قيادة كل العمليات الاجتماعية ومكانته في بناء الحضارات الإنسانية من منطلق أنَه يوَلد الطاقة الروحية للأفراد ويعبئ كذلك الأحاسيس المجتمعية، كان من الضروري أنْ تكون له مؤسسات خاصة يتم فيها تجاوز المستوى التجريدي إلى المادي وتكون له أماكن خاصة تظهر فيها الحياة الروحية بشكل أكثر انتظاما بحيث يتردد عليها الأفراد لتـزيدهم يقينا بديانتهم والتزاما فكريا وسلوكيا بمقتضياتها 10، ولتسهم كذلك في مختلف اهتماماتهم المادية والمعنوية بعد أنْ تتخذ لنفسها نسقا من العوائد والتقاليد والأعراف ومستويات للسلوك والصور التنظيمية والأدوار المتصلة بصفة أساسية بالذات الغيبية و بطبيعة الحال كل هذا النسق يتصل و يلتزم به المتدينون داخل المؤسسة وحتى خارجها.

إنَ المكانة التي حضيت بها المؤسسة الدينية في المجتمع الإنساني منذ القدم وإلى اليوم لم تتأتى من فراغ وإنَما من محورية الطقوس التي تمارس فيها دوريا في انتظام زمني وانسجام أدائي واستهلاك جماعي ، مجموع هذه الخصائص تعطي لحياة الأفراد معنى خاص يتم من خلاله نقلهم من المجال الإيماني المجرَد تُتجاوز فيه الاحتياجات والغرائز البدنية المحسوسة إلى إشباع الاحتياجات الروحية المجردة ، فيجد الإنسان نفسه في حالة من الاطمئنان النفسي لأنَه يتزود فيها بجانب طبيعي فطري وهذا شيءٌ مُجرب عند كل المتدينين بصرف النظر عن ديانتهم ، وفضلا عن الدور الديني (لعبت المؤسسات الدينية دورا فعالا حتى في جوانب أخرى للحياة الإنسانية يتجلى هذا الدور في تأثيرها المباشر على حياة الأفراد حيث لعبت دورا مركزيا في بناء السلوكيات الاجتماعية وتوجيهها وتعبئة

المشاعر المجتمعية) 11 ومسئوليتها من هذا الجانب لا تقل عن مسئوليات المؤسسات الاجتماعية الأخرى التي ترتبط بها ارتباطا وثيقا فدورها لا يُمكن إغفاله في الارتقاء باهتماماتهم وتوجيهها الوجهة الصحيحة حيث تعمل على صقل سلوكات الأفراد وعلى تحقيق التضامن بينهم وما لذلك من أثر على استقرار المجتمع كونها تزيد من مستويات التكامل بينهم ، وكثيرا ما تُعلَق عليها الآمال لما يفقد المجتمع توازنه بتراكم المشاكل والقيَم السلبية فيه وبالخصوص إذا تراجع دور الأسرة التي تُعدَ اللبنة الأس في التنشئة الاجتماعية أو إذا حدث اضطرابٌ في التعلق الوجداني بين الفرد والجماعة ، فالفراغ الذي ينتج عن هذا التراجع في تربية وتوجيه الأجيال الجديدة تملأه المؤسسة الدينية التي كثيرا ما ينظر إلي القائمين على شؤونها أنَهم رمز للنقاوة والخيرية ونماذج يحتذى بها لما هم عليه من صفات وخصائص تُمكَنهم من النفاذ إلى نفوس الآخرين ليوجهوها وبشكل أخص أولئك الأفراد الذين يكونون في حالة من التقهقر والضيق أين تصبح أفعالهم وأحاسيسهم خارج السيطرة ، فرجال الدين الذين تدَل مكانتهم داخل المجتمع على مرتبة اجتماعية وعلى رتبة معرفية متميزة وظيفتهم بالدرجة الأولى هو (جعل المؤسسة الدينية مرجعية في الإرشاد العام وكذلك ربطٌ للدنيوي بالأخروي أو ربط المدنس العادي المتمثل في الإنسان بالمقدَس أي المعبود) 12 ،كما يقومون أيضا على مستوى هذه المؤسسات بتربية الضمير الاجتماعي الذي يجعل الأفراد مندمجين في المجتمعات التي يعيشون فيها بقوة روحية تحكم ميولهم وإرادتهم ما يضمن إلى حد بعيد رتق الفتوق وردم الهوة بين مختلف شرائح وفئات المجتمع.

3. تعريف الثقافة وذكر خصائصها وميزاتها

1.3 تعريف الثقافة:

الثقافة كلمة لها مدلولات كثيرة أشكل تعريفها على العلماء حيث لا نجد لهم اتفاقا مطلقا حولها وقد وضع لها الدارسون تعريفات كثيرة اختلفت باختلاف وجهات نظرهم، فحتى لو صرفنا النظر عن معناها في المعاجم والقواميس نجد أنفسنا أمام ما يربو عن العشرات من التعاريف وما تجد الإشارة أنه مع كمها الهائل يمكن لنا القول أن الفروق ما بينها ليس كائن على مستوى الأصول وإنما الفروع، ومن التعاريف التي وجدناها تنطوي على قبول عام من طرف الدارسين هو الذي قدّمه إدوارد تايلور بالرغم من قدمه، أين نجده في مؤلفه الثقافة البدائية يستخدم مفهوم الثقافة كمرادف للحضارة ويقول أنها : (كلٌ مركبٌ يشتمل على المعرفة والعقيدة والأخلاق والقانون والعرف وغير ذلك من العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضو في الجماعة') 13، ومن التعاريف التي يمكن أن نذكرها في هذا الصدد استنادا إلى رؤية

الكثير من الباحثين في الأنتروبولوجيا الثقافية هي أن الثقافة : (نسق من المناشط والاتجاهات والأشياء التي يلعبُ كلٌ منها دورا مُحددا لتحقيق غاية معينة أي أنَها تُؤلَف كلاً مُتكاملا تتساند فيه العناصر والأجزاء المُكوَنة، كما أنَ هذه المناشط والمواقف والاتجاهات تُنَظم في شكل نُظُم اجتماعية كالعائلة والقبيلة والهيئات الاقتصادية والسياسية والتعليمية وما إليها) 14 ، وقد تحدث كثيرا المفكر الجزائري مالك بن نبي عن ماهية الثقافة في كثير من مؤلفاته القيَمة حيث ذكر في نسق تحليله لهذا المفهوم أنَ الثقافة : (كلمة جديدة محدثة وُجدت عندنا بطريقة التوليد وربما يكون الذي صاغها اختارها من بين عدد من الأصول اللغوية مثل علم-أدب-فهم-إدراك، ثقف ككلمات تدل على العمل والعلاقة المعرفية)15، وهو الشيء الذي جعل من الكثيرين على غرار دونيس كوش يُركَبُون ما بين هذه الكلمة " ثقافة" ومعاني أخري ذات دلالات متنوعة كونها كما يقول أنها : (أصلا تتشكل تبعا للواقع اليومي ومن خلال النشاطات العادية المُتجددة كل يوم) 16 ،كأن نقول مثلا: ثقافة دينية، ثقافة جنسية، ثقافة طبية، ثقافة رياضية...إلخ للدلالة عل الإدراك والفهم واكتساب معلومات في جانب من جوانب المعرفة والعلم.

وبعد أن ذكرنا هذه التعريفات التي اخترناها كنماذج فقط لكثرتها يُمكننا القول أن مصطلح الثقافة مُتسم بالشمولية والمرونة وليس له تعريف جازم منتهى بحكم أنَه قابلٌ للتحوير والإضافة والتعديل على حسب مجموع المكونات والخصائص التي تميز المجتمعات عن بعضها البعض، زيادة على أنَ له وجهان أحدهما مادي والآخر معنوي لذلك سنركز في الكتابة عن موضوعنا على الجانب المعنوي غير المحسوس والذي يمثل كما نرى مجموعة القواعد والمعايير المُنظَمة لحياة المجتمع، والضامنة لاستمرار يته والمتحكم في سلوكه، هذه القواعد هي القيم والتقاليد وكل السمات الروحية والفكرية والمنتجات العقلية الأخرى التي تعد كمصادر مرجعية لنا نُحدَد نقاط الاتصال والانفصال مع الغير سواء تعلَق الأمر بالمعتقدات أو اللغة أو القيم الأخلاقية والسلوكية أو المناهج التعليمية التربوية وغيرها من العناصر التي تُشكَل أوجه الحياة في مظاهرها المختلفة لمجتمع من المجتمعات.

2.3 خصائص الثقافة وميزاتها:

استنادا إلى ما تمت الإشارة إليه أنفا يمكننا القول بالمفيد المختصر أن فهم الإنسان يستوجب فهم ثقافته التي هي في الأصل صناعة له ونتاج أعماله الفكرية ومنجزاته الحضارية بمعناهما الواسع، فالثقافة بوجوهها المتعددة وبعناصرها الثابتة والمتغيرة ، هي أسلوب أو نمط حياة الإنسان يتضمن ذلك

الكل الشامل الذي يحتوي على الأفكار والمعاني والرموز و القيَم بأنواعها وكذلك نماذج السلوكيات والعوائد والتقاليد التي تتناقلها الأجيال كابرا عن كابر بشكل تلقائي ويتعود عليها المجتمع من خلال التنشئة الاجتماعية والتقليد والمحاكاة وأيضا من خلال التوجيه والإرشاد في كل العمليات الاجتماعية ومناشط الحياة الإنسانية بشقيها المادي المحسوس والمعنوي المجرد ، ومثل هذا الأمر هو الذي يجعل منها خاصية ينفرد بها الإنسان مع غيره من المخلوقات الأخرى داخل ممالك الحيوان هذا من جهة ومن جهة أخرى علامة أو طابعا يطبع مجتمعا معينا ويميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى بحكم أنَها تمنحه معالم هوية منفردة وتطبعه كذلك بمناهج وطرائق خاصة في الحياة تحفظ له استمرارية وجوده وتكامله وتحقق وحدته ، ومن منطلق أن الثقافة تعبر عن مجموعة من التجارب الإنسانية المتراكمة فإنها تتميز وتختص بمجموعة من السمات سنذكرها دون توسعة وباختصار غير مخل في النقاط الآتي ذكرها:

1.2.3 الثقافة ذات سمة إنسانية مستمرة: لا شك أن الاناسة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاجتماع ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتصور مجتمعا من دون ثقافة وبطبيعة الحال ليس لنا الحق أن نطلق الأحكام بالقول على ثقافة معينة أنها بدائية أو راقية متقدمة وكل الثقافات من دون استثناء كانت محاولات من الإنسان لتحوير الطبيعة بغية إشباع رغباته المادية والروحية ليس جملة واحدة وإنما بشكل متواتر وتدريجي لذلك قد يمارس الإنسان بعضا من مناشط الحياة المتصلة بالثقافة ولكنه قد لا يعي الكيف ولا المغزى من نشأتها كما لا يعلم الزمن الذي بدأت فيه ، وبالرغم من ذلك تجده بوعي أو من دونه يؤدي تلك المناشط وكأنه ملزم بذلك على الطريقة التي كانت تؤديها الأجيال السالفة ، وهو الشيء الذي يجعلها محفوظة في صورها وأشكالها القديمة تقف في وجه رياح التغيير التي تعصف بالمجتمع وحتى لو حدث هناك اي تبديل فيها فإنه يمس الفروع فقط دون الأصول.

2.2.3 الثقافة مكتسبة وليست فطرية: من الحقائق التي تتوافق فيها الآراء وتجتمع في صعيد واحد أن الإنسان حين يُقبل على الدنيا لا تكون لديه إلا أفعالٌ و سلوكاتٌ متعلقة أساسا بالفطرة و يفتقر بشكل مطلق إلى كل الخبرات والمعارف حول المحيط الذي يعيش فيه ليجد أمامه مجتمعا قائما بحد ذاته سابق لوجوده له نظامه الاجتماعي ومعتقداته وأفكاره وعوائده ومؤسساته ونظمه المتنوعة يتم منذ الوهلة الأولى إحاطته بالمتابعة والرعاية من خلال مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية لمساعدته على الاندماج وكذلك بغية إكسابه نفس أسلوب الحياة ويشارك أفراد المجتمع نفس المعايير والقيم ليستطيع

التواصل معهم ويوجه أيضا علاقاته الاجتماعية مع الآخرين حتى وإن اختلفوا معه في الأفكار وبعض السمات الثقافة .

3.2.3 الثقافة ذات مضامين متنوعة:إن الثقافة التي تمنح الإنسان جملة من العوائد و القوانين والنظم التي تساعده على التأقلم مع شتى المواقف في الحياة بما يسمح له بقبول الآخر الذي هو من نفس جماعته والتفاعل معه دون توتر أو صدام ليكون له شعورا مشتركا معه ، لكن في بعض الأحيان نجد أن الثقافة تحوي مضامين متعددة ومختلفة وهذا الاختلاف بمقارنة سطحية بين الجماعات الإنسانية يمكن أن يتجلى بصورة واضحة ليعبر عن التمايز والخصوصية حيث يكون ما هو مقبول و مقدس في نظام اجتماعي عند مجتمع معين يقابل برفض وعدم اعتراف وتحريم في مجتمع آخر والأمثلة طبعا لا يسع ذكرها في هذا المقام فعلى سبيل المثال لا الحصر في الجانب العقائدي يكفي أن نعقد مقارنات بين المجتمعات التي تؤمن بوحدانية الإله وبين الأخرى التي تؤمن بتعددها أو ما بين المجتمعات الوثنية أو المجتمعات التي تؤمن بالديانات المصنفة سماوية وهو شاهد ودليل على تنوع مضامين الثقافات وعلى اختلافها أيضا.

3. 2. 4 الثقافة متسمة بالتحول والتراكم: تتميز الثقافة بكونها الرابطة التي تربط أفراد الجماعة الواحدة وتتيح لهم الانسجام والشعور المشترك بالتغير وعدم الثبات ولعل هذه السمة تنطبق على مختلف الظواهر الأخرى المتعلقة بالإنسان وما يحيط به بل هي قانون تخضع له كلّ الظّواهر وقد ذكر في هذا الشّأن أحد أكبر فلاسفة اليونان هيرقليطس ما يأتي :(إنّ التغيّر قانون الوجود وأنّ الاستقرار موت) 17، فالمتمعن بالدرس في المجتمع الإنساني يكتشف تقلب الأوضاع فيه، ولم يحدثنا التاريخ عن أي مجتمع من المجتمعات استطاع أن يظهر في صورة ثابتة مستقرة بشكل مطلق حيث أن هناك على الدوام إضافات تضيفها الأجيال الجديدة إلى ميراثها الثقافي ليزداد غنى تمس عناصر الثقافة بشقيها المادي والمعنوي أو تعديلات يتم بموجبها ما ترى أنه لا يتوافق مع الظروف الجديدة وما استجداه العالم من حداثات في سائر جوانب الحياة لتصبح تلك التعديلات هي بدورها منجزات جديدة في صورة عادات وتقاليد ومعاني ورموز تنتقل إلى أجيال لاحقة.

4. بيان العلاقة بين ظاهرتي الدين والثقافة:

موضوع علاقة الدين بالثقافة سواءا كمفهومين أو كظاهرتين من المواضيع التي إهتم بها الباحثون والدارسون لأنه ما من وجود بشري إلّا ولحقه وعيٌ ثقافي ونزع دينيٌ فالظاهرتان تتسمان بالعالمية ولا

تخصان مجتمعا دون آخر بالإضافة إلى أنّهما ليستا محصورتان في مكان معين ولا زمان محدد ، لكن هذا الاهتمام لم يزد الموضوع إلا غموضا والتباسا كون أنَ وجهات النظر حوله تعددت ولم تستقر عند رأي واحد ووحيد وهذا التعدد الذي عكس التباين في أراء الباحثين كان تبعا لمدارسهم وتخصصاتهم العلمية من جانب ومن جانب آخر أنَ الظاهرتين في حدذاتهما ذوات طابع إشكالي كما سبق وأشرنا في موضع قبل هذا لما تحدثنا عن ماهيتهما فمفهومهما يقعان على أرض مشتركة بين مجموعة كبيرة من التخصصات العلمية وإذا ما كان الأمر كذلك كمفهومان تكتنفهما الضبابية وعدم الوضوح فكيف القضية بالنسبة للعلاقة التي تربط بينهما ، فلا شك أنَ خوض الحديث فيها ومناقشتها بشكل جدي ينطوي على قدر كبير من الصعوبة ، لكن رأينا من الضروري الوقوف على حقيقة هذه العلاقة بغية رفع الالتباس عنها ، والبداية ستكون مع مناقشة بعض الأفكار التي وردت في مؤلف الناقد الانجليزي توماس إليوت بعنوان "ملاحظات نحو تعريف الثقافة " الذي كتبه سنة 1948م والذي حاول من خلال مجموع الأفكار التي ضمها فيه أنْ يُقدَم نظرية يُبين فيها العلاقة بين الدين والثقافة، والجدير بالذكر أنَ اعتمادنا على هذا المؤلف واختيارنا له لم يكن صدفيا وإنَما لإجماع الباحثين على قيمته العلمية والفكرية السبب الذي جعلهم يعودون إليه باستمرار أثناء فتح الأقواس للحديث عن جدلية العلاقة بين الثقافة والدين، وما لفت انتباهنا هو أنَ توماس إليوت بنفسه يُقر في محتوى مؤلفه هذا بصعوبة الوقوف على حقيقة هذه العلاقة ويعترف كذلك بالارتياب والشك الذي يعتريه في مقدرته على إدراك الصلة بين الدين والثقافة ما حال دون إكساب نظريته قوة التحديد والتماسك حيث ذكر في هذا الصدد الآتي : (إنَ ما حاولت التلويح به من نظرة إلى الثقافة والدين لجد عسير بحيث لا أحسبني أدركه أنا نفسي إلاَ لمحا ولا أحسبني واقفا على جميع دلالته وهي أيضا نظرةٌ تنطوي على الوقوع في الخطأ في كل لحظة لعدم التنبه إلى تغير في المعنى الذي يكون لكلتا الكلمتين) 18،وكذلك للعلاقة التكاملية بين الدين والثقافة فإذا ما استطاعت هذه الأخيرة أنْ تلبي بعض حاجيات الإنسان ورغباته بالخصوص المادية منها فإنَ الأمر ليس كذلك لبعض الحاجيات الأخرى ، وهنا يبقى الدور كله منوطٌ بالدين لأنَه وحده هو القادر على تلبيتها وبتعبير آخر لما كان الإنسان جسد وروح فإنَ الثقافة منفردةٌ إذا استطاعت أنْ تُلبي حوائج الناس المادية فإن الأمر يتعذر عليها حين يتعلق الأمر برغبات الجانب الروحي وهي الغاية الكبرى للدين الذي يتم اللجوء إليه لإيجاد حلول لبعض من المشاكل التي تُشعر الإنسان بالوهن والضعف أمام الحقائق الكبرى المتعلقة بالوجود والكون ككل، فتنزاح عنه العوائق وتتذلل أمامه الصعوبات، وهذه الفكرة شاهدةٌ على أنَ

الثقافة إنْ لم نضع أمامها الدين كخط مواز لها يبقى الإنسان في حيرة من أمره وينقطع عن بعض جوانب ووجوه المعرفة والعلم وحتى الفنون أيضا على اختلافها كأجزاء لا تتجزأ من المجال الثقافي، فالفنون كذلك نقطة مهمة في حديثنا عن العلاقة بين الثقافة والدين وكثيرون أولئك العلماء المختصون في الحقل العلمي الاتنولوجي الذين يعتبرون أصول الفن تنبع من المجال الديني عامة وأنَ الأوجه الدينية التي تعالج فيها كثيرة إذ أنَ الأساطير مثلا (لا تُقص كتاريخ وإنما كشعر ونثر رفيع ونفس الشيء مع الأدعية والصلوات والأناشيد الدينية والأذكار لا تُقرأ بل تُرتل وتُنشد صياغة شعرية أو قريبة من ذلك ولا تُنفذ الرقصات الدينية إلا بالاقتران التلوين والأقنعة الطقسية تنُم عن المهارة الفنية للصانع)19، ولعل هذه العلاقة التكاملية والجدلية في آن واحد هي إحدى الأفكار الرئيسية التي حاول توماس إليوت الوقوف عندها حيث لمَح إلى صعوبة الفصل بين كل من الثقافة والدين لأَن العلاقة بينهما هي علاقة فرع بأصل أو جزء بكل أو بالأحرى علاقة احتواء يبدو فيها الدين مكون رئيس من مكونات الثقافة وعامل مهمٌ في فهم السلوك البشري والتجربة الإنسانية بشكل مجمل فنجده يُؤكد في كتابه السالف الذكر على التلازم الكبير بينهما حيث كتب في شأنه الأتي: (أول دعوى هامة أقيمها هي أنَه لم تظهر ثقافة ولا نمت إلا بجانب دين ومن هنا تبدو الثقافة نتيجة من نتائج الدين وأنَ الدين نتيجة من نتائج الثقافة) 20،فكثيرا ما يُنتج الدين ثقافة حين يكون منبعا للمعرفة بالنسبة للإنسان كونه يعلمه ويمده بالإستراتيجية التي يتوجب عليه إتباعها ليُصبح إنسانا في منتهى الحضارة، ثُم إنَ الدين يُفسر وفق الحيثيات التي تتبعها الثقافة، لذلك لعله ليس من الخطأ القول بأن أسئلة الدين هي في الجوهرأسئلة ذات بعد ثقافي، فإذا ما كان مجموع الأفكار الدينية لجماعة إنسانية معينة هي إدراك وفهم ومعرفة حقيقية للدين عندها فإنه من المعقول جدا أنْ تُصنف ظاهرة الدين بمستوياتها المختلفة ضمن المعطى الثقافي، ومن الشواهد التي تستوقفنا أيضا أثناء حديثنا للاستدلال على الترابط القوي بين الدين والثقافة وصعوبة الفصل بينهما هو أنَه حتى لو بحثنا في القواميس والمعاجم و تعمقنا في الجذر اللاتيني لكلمة ثقافة نجده قريبا جدا من المصطلح الديني ويعني عبادة أو دين أو عقيدة ، هذا من جهة ومن جهة ثانية فالدين يمثل ثقافة كاملة لشعب أو أمة ليس لكونه مجموعة من نصوص وتعاليم وقيَم فقط بل لأنَه أيضا كيان مجسد اجتماعيا ومُبلور بالممارسة لأي تقاليد وأفعال ، وهذا ما يجعله وليد سؤال ثقافي وهي الفكرة التي تمنعه من (التواجد خارج دائرة الثقافة فحتى في الأديان المسماة بدائية كمنظومات من الأساطير والطقوس لا تنفصل عن ثقافة الجماعة) 21 ، وبهذا المعنى يكون الدين بما يتضمنه من أجوبة إلاهية عن أسئلة ثقافية مصدرها

البشر وبصفته مجموعة من الأوامر والنواهي التي يتوجب على الإنسان إتباعها والعمل بها لطبع سلوكاته بالاستقامة ولتهذيب أخلاقه وتحسين أفعاله لتحقيق الكمال الانساني في إطار الحرية الفردية والافعال الاختيارية للأفراد يلتقي مع الثقافة بمعناها الشامل والواسع والتي تهدف هي بدورها إلى السمو بالانسان والارتقاء به في مصاعد الحضارة حتى يحقق التقدم في مختلف مظاهر ومجالات الحياة ، زيادة على أنَها المحرك الذي يحرك تطلعاته لمستقبل يصل فيه إلى أهدافه وغاياته المنشودة وبالتالي فإنه بالعودة إلى التعريفات التي سبق وأن ذكرناه في موضع قبل هذا يبدو أن العلاقة بين الظاهرتين هي علاقة إلتقاء أكثر مما هي تقاطع بحكم أنهما تنسجمان بغية تحقيق الغايات والأهداف التي تجعل من حياة الإنسان متطورة في شتى مظاهر الحياة ، فالثقافة كما الدين كظاهرتين تعملان على توسيع أفق المعرفة بشكل عام وتطلبان بإلحاح من الإنسان أن يجعل لحياته معنى وأن يحياها لأجل أهداف سامية ونبيلة تحقيقا منه للنماء والإصلاح وتنظيم حياة المجتمعات ، وهو الشيء يستزيدنا قناعة من عدم إمكانية سلب الفكرة الدينية بما تحمله من مضامين البعد الثقافي الذي تمليه حيرة العقل الإنساني أمام الطبيعة وكذلك خوفه مما لا يعرفه من المجاهيل التي تُحيط به فالإنسان حين يُفكر في الدين فإن جوهر هذا التفكير هو في الثقافة لأنه بالإضافة إلى عنايته بالجانب الروحاني للإنسان يُعد أيضا تراث وتاريخ قيمته لا يُستهان بها في كل محاولة لتعريف الثقافة ، فهو يعتبر من أهم مصادرها عند الشعوب بل إنَ المجتمعات كما الأفراد يتأثرون ثقافيا بالدين حتى إنْ لم يكونوا منتسبين إليه ولا مؤمنين به لأنَ القيَم والأخلاق ورؤية الإنسان نحو الحياة تستمد غالبية مفرداتها من الدين أيا كانت طبيعته فالشخصيات أو الأسماء التي سجلَت وجودا وإسهاما بارزين في التاريخ الأوروبي المسيحي أو في العالم الإسلامي من دون أن نذكرها لما هي عليه من كثرة كانت كذلك شخصيات مبدعة في المجال الثقافي من لغة وفن وشعر ورواية وترجمة وقانون .

إنَ المجتمع البشري عبارة عن جماعات إنسانية تتشارك في نفس الأعراف وتسير وفق أنظمة موحدة و وقواعد مشتركة يوافق عليها الجميع ، والمتمعن بالنظر في طبيعتها يجد أنَ جلها تتخذ من الدين مصدرا هاما من مصادر قوانينها ونظمها على اختلافها بداية من النظم التعليمية والعائلية والقضائية وحتى الإدارية ، ومجموع هذه النظم طبعا لها علاقة لا يُمكن إغفالها أو تجاهلها مع الثقافة التي ترمي في أسمى أهدافها إلى جعل حياة الإنسان مجال يسمح له أن يُطلق العنان لطاقاته الإبداعية ليُمارس نشاطاته دون قيود سلبية ولا ضوابط هدَامة ، وقريبا من هذه الفكرة نجد الفيلسوف الألماني أرنست كاسيرر الذي يعتبر أكبر شارح للفلسفة الكانطية ووريثها الشرعي و الذي حاول في كتاباته

تجاوز التعريف الكلاسيكي للإنسان الذي انحصر في صفة النطق لردح طويل من الزمن أضاف سمة جديدة له تتمثل في الرمزية باعتبار أن العالم الذي يعيش فيه الإنسان عالم رمزي وما الثقافة واللغة والفن والأسطورة والدين إلا أجزاء من هذا العالم ، (يعتقد أنَ ما يقوم به الدين على المستوى الاجتماعي بتوثيق الروابط بين أفراد الزمرة الاجتماعية الواحدة هو الذي يجعل من فوضى الأفكار تتحول إلى نظام دقيق في الواقع ، كما أن التلاحم الاجتماعي يتجسد على المستوى السلوكي من خلال الطقوس كجزء من الممارسة الثقافية والتي تعبر عن وحدة سلوك أفراد المجتمع الواحد وهذا لا يعتبر تفسيرا لمعنى الطقوس على المستوى الاجتماعي فقط بل هو غاية كان ينشدها الإنسان القديم من خلال الطقوس الأسطورية الدينية كما ينشدها اليوم الإنسان المعاصر من خلال قنوات أكثر تطورا) 22 مرتبطة بالثقافة إرتباطا وثيقا فما يبدو الآن منطقي إلى الأذهان انطلاقا مما سبق ذكره هو أنَ أحق المجتمعات بالحياة و استمرارية الوجود هي تلك التي تجمع بين الدين والثقافة فما من شيء يُعرَف على أنه دين إلا إذا كان معترفا به كدين من قبل الثقافة المُهيمنة ، والجمع الذي أشرنا إليه نقصد به في هذه الحال الدمج بين القوة الروحية والقوة الفكرية المعرفية بوجوهها المختلفة والحال هنا تنطبق على بعض من المجتمعات الأوروبية في زماننا هذا التي بنت ثقافتها على الدين ولنأخذ على سبيل المثال ألمانيا البلد الذي (شهد الانهيار الكامل لعالم أشيائه إلا أنَه استطاع عن طريق احتفاظه بعالم أفكاره أن يبني كيانه من جديد) 23 في ظرف قياسي لم يتجاوز ثلاث عقود باعتماده على ثقافة تستمد قوتها من الدين الشاهد ما ذكره رئيس نُظَاره الذي ذكر في إحدى المناسبات التالي: (إنَ ثقافتنا مبنية على الدين المسيحي)24 ، وعلى نحو مماثل نجد أنَ الحال تقريبا هي نفسها مع القبائل العربية التي كانت تعيش فضاءا أقل ما يُقال عنه أنَه لم يكن موجودا إلا في المجتمعات التي عاشت حياة قريبة إلى الأشكال الأولى للحياة الإنسانية البدائية حيث كانت تحيا في ظروف تتسم بالعجز والتخلف في شتى مظاهر الحياة، ولم تستطع أنْ تستجدي بعضا من التغيرات الجذرية إلا بعد ظهور الدين الإسلامي الذي صنع ثقافة كانت ولا تزال من الثقافات الإنسانية العالمية التي بنت حضارة وكوَنت أمة ارتقت بها فحولتها من (الفرقة إلى الوحدة ومن الجاهلية إلى المدنية وصيَرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة) 25، ذلك لأن الدين يُمكن أنْ يكون قوة لها فعلٌ إيجابي في علاقة الإنسان بما يُحيط به من ظواهر الحياة والكون عامة ولمَا كان كما سبقت الإشارة إليه استجابة للفطرة فإنَه من الصعب جدا أنْ نتصور مجتمعا راقيا يُهمل فيه الدين بما يحمله من مضامين ومبادئ تراعي مصلحة الفرد والجماعة على حد سواء.

إنَ معطيات المعرفة التي يستمدها الإنسان من الدين الذي يعتقده ليست نقيضا لمعطيات المعرفة العقلية التي تمثل إحدى وجوه الثقافة بل أكثر من ذلك تبدو أنها مرتبطة من منطلق أنَه لا قيمة لمعرفة غيبية منفصلة إنفصالا تاما عن العقل كوسيلة أو آلة للتفكير منتجة لقوانين الثقافة، وهذا لا ينفي طبعا بعضا من أوجه التقاطع بين الثقافة والدين وبالخصوص تلك المتعلقة بالمرجعية المعرفية الرئيسية لكل منهما في مختلف المجتمعات إذ أنَ الثقافات في الحراك الانساني كثيرة جدا ومتنوعة تتسم في بعض من الأحيان بالبساطة وفي أحيان أخرى بالتعقيد وربما أكثر ما يميزها هي تفاوتها في التطور والرقي ، لكن الأديان معظمها متشابهة في المعتقدات والرؤى الغيبية والتخمينات المتعلقة بالكون والحياة وهي قائمة على فكرة الاعتقاد أو الإيمان الذي يفسر سؤال البداية والمصير وسر الوجود كأسئلة تتضمنها الثقافة الشيء الذي يسمح بإعتبار الدين مضمون من مضامين الثقافة كونه يقدم رؤية للعالم ويعطي تصورات كثيرة لبناء المجتمع في أدق التفاصيل ، ولعل مثل هذا الارتباط والعلاقة الوطيدة التي تجمع بين الدين والثقافة جعلت من بعض الدراسين يعتمدون فكرة أنَ الدين هو في حد ذاته ثقافة ويرفضون الفصل بينهما على غرار الفيلسوف والسياسي الفرنسي أوليفييه روا الذي صاغ مفهوما جديدا في كتابه المعنون "زمن بلا ثقافة" أسماه الجهل المقدس ليصف به الاعتقاد الزائد عن اللزوم بالفكرة الدينية المحضة التي يتم بنائها أو صياغتها خارج الثقافة ، ضف إلى هذا كله كلا الظاهرتان في الحقيقة ليست إلَا تجليَات لاحتياجات المجتمع تشتركان في نفس التطلعات كما تُعبران عن طريقة خاصة في وجود الإنسان وكينونته ثم إنَ كلاهما انعكاسٌ من شكل مفهومهما لمجتمع معين حيث يطبعانه بطابع خاص ويسهم كلا منهما في لإغناء الفكري والروحي للأفراد ، وزيادة على الذي ذكرناه فإنَ الدين أسلوبٌ من الأساليب المحددة من الطقوس والشعائر والقيَم وهذا الأسلوب المُحدَد يقصد به تلك الطريقة الثابتة القارة التي لا تقبل التغيير ولا التبديل في ممارسة الحياة اليومية وفي بناء المجتمع وإعادة إنتاجه ولذلك ليس من الغريب إطلاقا إعتباره ركيزةٌ من الركائز التي تعتمدها الجماعة لتعبئة ثقافة معينة ولشحنها بالرموز والمعاني والدلالات ، فالدين لابد وأن يتم إخراجه من الفلك المغلق الذي يحصره في فكرة أنَه فقط رؤية للعالم وكفى، ليصبح عنصرا من العناصر التي تُبنى عليها هذه الرؤية من خلال شحن المخيال الاجتماعي للأفراد بمضامين وقيم متعددة الوجوه قد تُساعد بشكل فعَال في إعادة الجماعة أو المجتمع إلى شخصيته وإلى جذوره الثقافية حين يخرج عن جيد السكة وتعتريه بعضٌ من ظاهر اللاتوازن وهذه حقيقة موجودة يكفي فقط أنْ نعود بالزمن إلى الوراء ونقف عند أحوال الأمم والمجتمعات التي عاشت حالات من الاحتقان الثقافي والتيه

الحضاري فبحثت لها عن مخرج ولم تجد لها حلا سوى العودة إلى الدين بما يتضمنه من خطاب وبما يحويه من تعاليم ، فالعالم الغربي الذي نحن في صدام حضاري معه الآن كما هو معروف عاش ردحا طويلا من الزمن وُصف بعصور الظلمات لكن استطاعت بعض مجتمعاته أنْ تقفز خارج أسوار التخلف وتتحرر من الجهل كما نجحت في مواجهة سلبيات المجتمع و أثرت فيه بإحداث تغييرات في مساراته وذلك بالاعتماد بالدرجة الأولى بما يُسمى بالتصحيح الديني وببناء ثقافة جديدة تمَ العودة فيها إلى التعاليم الحقيقية للدين المسيحي الذي استطاع أنْ يضمن وحدة وتماسك أوروبا ، وهذا ردُ كاف للناقمين على الدين والقائلين بأنَه عامل من عوامل التخلَف والتقوقع في الماضي فالتاريخ أثبت ها هنا أنَ هذه المجتمعات تمكنت من أنْ تُحوله من صورته الرجعية إلى صورة خلاَقة راقية فحصلت على التقدم الشيء الذي يسمح لنا بالقول أنَ كل ما يتعلق بالشأن الإنساني موضوعٌ ثقافي كما هو موضوع دينيٌ، فالثقافة الغربية إذا بناءا على هذه الفكرة لا قيمة لها في حدَ ذاتها إلاَ إذا بقيت ملهمة بالدين المسيحي ومن يبحث في الموضوع بشكل فاحص وتحليل عميق لدفع الالتباس عن هذه الفكرة يجد أنَ الخطاب الأوروبي المعاصر(الذي كان للكنيسة دورٌ لا يُستهان به في تكوينه لم يكن يُدافع عن الثقافة الغربية وإنَما عن الثقافة الغربية المسيحية) 26، و هذا من الدلائل التي تدل دلالة بيَنة على أنَ الثقافة تكاد تكون مستحيلة من دون دين أو إيمان لذلك نجد أكثرية المفكرين الغربيين المشتغلين بالحقل الديني يضعون على الدوام في خضم حديثهم عن التغريب الثقافي بمعانيه الواسعة (الكنيسة في الصدارة فعند أمثال هؤلاء ما هو جزءٌ من ثقافتهم هو أيضا جزء من الدين الذي يعيشونه) 27، من منطلق أنَ العوائد والتقاليد والقيَم التي تتعارف عليها الجماعة هي دينها كما هي تراثها الثقافي والحضاري الذي تتناقله الأجيال بمرور الزمن ، فالدين يُمكن أنْ يصنع بعضا من أجزاء الثقافة حيث يستطيع أنْ يُلهم الإنسان الفنون ويثبت لغاته كما يُطور المكتوب ولمَا كانت اللغة وعاءا حضاريا ومعلما ثقافيا هوياتيا فإنَ الأديان على اختلافها لعبت دورا رئيسيا في ترقيتها وتعميمها للتأثير على المؤمنين بها وعلى العامة من أفراد المجتمعات ، فالمسألة هنا جوهرية بالنسبة لظاهرة الدين ومن يمثلها من طبقة رجال الدين حيث اقتضت الضرورة كتابة النصوص الدينية لحفظها من الضياع ، وهذا الظرف لوحده كان كافيا لبروز فكرة عصور التسجيل والتدوين التي أدَت بمرور الزمن إلى تطوير الكتابة كما أشرنا آنفا ولنأخذ على سبيل المثال لغة الضاد التي جاءت بها الرسالة الإسلامية العقلانية والتي أصبحت بعد مدة ليست بطويلة لغة العلم والمعرفة و انتشرت في بلاد كثيرة غريبة عنها حتى تمكن منها نطقا وكتابة الأعاجم فقط لأنَهم إنضووا تحت لواء الإسلام ، ولعل هذه الفكرة لا يكاد يختلف فيها

اثنان فلو لا الدين الإسلامي لما تطورت اللغة العربية ولما وصلت إلى درجة الرواج التي هي عليه اليوم بعد أنْ كانت فقط محصورة في حيّز جغرافي ضيّق ، ونفس الشيء لبعض الأديان الأخرى التي انتشرت في معظم أصقاع المعمورة الأرضية دأبت بعامة على نشر لغات القوى الدينية المسيطرة كالاسبانية في أمريكا ، الفرنسية في إفريقيا فأصبحت الهويات الثقافية لهذه المجتمعات تتشكل من خلال الخلفيات الدينية ، ثُم إنَ الدين من الممكن جدا أنْ نعتبره أداة من الأدوات التي تُحيلنا إلى الإطلاع على الثقافات القديمة جدا فنجد مثلا في الكتب المُنزّلة الخاصة بالديانات السماوية الثلاث أخبارا تُعبر عن الواقع الثقافي للمجتمعات القديمة ، الشيء الذي يجعل من الظاهرتان متقاربتان جدا ومتشابهتان بحيث أنَهما تُعدَان عنصران هامان من عناصر التراث لتلك المجتمعات وتعطيان صورة حيّة لها وهذه الصورة هي التي تساعد بشكل كبير في تحديد السمات والميزات التي تصنع الفوارق بين المجتمعات وتعبر أيضا عن قوام كينونتها ، وكما نرى فإنَ أيُ محاولة لبتر الصلة بين الثقافة والدين هو تكريس للفراغ الديني الذي سوف لن يُجنى منه إلّا السذاجة التي تمتع فهم التحولات العميقة في المجتمع وتفقد أفراده إحساسهم وشعورهم بمشاكلهم وأزماتهم فتجريد الثقافة من الدين هو الذي يجعل حقيقة وجودها وعدمها سواء لأنَ الدين حضوره مطلوب وأكيد ليقف أمام الثقافة وليعمل معها في بناء جماعات متفرقة عن طريق تحقيق القوة والتماسك فيما بينها بإيمانها بنفس المرجعية الدينية فتُطبع بطابع خاص تظهر من خلالها ذاتيتها وهويتها ، كما يسهم أيضا في تطوير وإنماء الحياة الإنسانية فكرا وسلوكا ويُنظّم كذلك غرائز وميولات البشر حتى لا تكون حياتهم في حالة من الفوضى ، فالقوة الرئيسة التي جعلت من أوروبا ما هي عليها اليوم كمَا لمَح إليه إليوت في كتابه السالف الذكر ملاحظات حول تعريف الثقافة هي بالدرجة الأولى ما جلبته المسيحية معها لتتشارك مع العناصر الثقافية الأخرى حتى أضحى من المستحيل إغفال أو إخفاء الإيمان المسيحي عن ثقافة أوروبا ,إذا ما افترضنا حدوث ذلك فقد لا يكون من مجانبة الصواب القول: (بأنَ الإنسان الغربي سيُحكم عليه بالموت حضاريا لذلك أصبحت قناعته بوصفه دارسا لعلم الإحياء الاجتماعي شبه مطلقة بأنَه إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل الثقافة الأوربية)28 بمعناها الممتد والذي يُحيل إلى كل أنماط الحياة والفكر التي تشكلت على مدى قرون زمنية عديدة، وهذا الواقع شبيه إلى حد بعيد بالمجتمعات الإسلامية التي تنبع الثقافة فيها بمعناها المحمود من الدين وتستمد كيانها منه لأنَه وببساطة قوة من القوى التي لها أثرٌ بارز وحاسم في تكوين الفرد بحيث يستطيع الدين بشعور الإنسان أو من دونه النَفاذ إلى أعماقه ما يُسهّل من تحريك خواطره ويساعد في التحكم بمشاعره وعواطفه وتكوين دوافع

السلوك عنده كذلك ومن ثمَ تكوين العرف والتقاليد والعادات التي تُعدَ كلها مواضيع تعني بها الثقافة عناية فائقة ، فهذه الأخيرة عند الفرد المسلم المُتدين ليست ثمرة التقاليد التي يتم توارثها عن طريق عملية التطبيع والتنشئة الاجتماعية ولا هي نتيجة تطورات وتيارات فكرية آتية من الماضي وإنَما هي انبعاث ذاتيٌ من الدين ومن تطبيق تعاليمه تطبيقا عمليا صحيحا في واقع حياته فيتمكن بذلك من الإحساس بزمانه ليسلك الطريق الذي ينبغي سلكه وليتقدم فيه، فالدين من هذا المنطلق ليس كما يفهمه بعضٌ ممن لهم نظرةٌ تعبدية محضة ويعتقدون خطاءا أنَه لا يتعدى حدود العبادة والإيمان كعنصر روحاني في حياة البشر، وليس فقط أجوبة للأسئلة التي يطرحها الإنسان والتي تنبع من انعدام حالة الطمأنينة التي يستشعرها في حياته وإنَما شأنه شأن الثقافة فهو في كليته نظام حكم وأسلوب حياة ونمط عيش وتعايشي كما أنَه إحدى القواعد الأساسية التي يُبنى عليها التطور الثقافي وقد أثبت التاريخ في مرات عديدة مثلما أشرنا إليه في الأمثلة السالفة الذكر أنَه الآلة الإصلاحية التي اعتمدها الإنسان لتوصيف مشاكل المجتمع التي أدَت إلى إفقاده الوعي وتوازنه الفكري ، فقد طرح بعضا من الحلول لفهم تعقيدات واختلاطات وتداخلات هذه المشاكل التي تمس مظاهر حياة الأفراد ، وهذا كله هو الذي يُفسَر كيف يلعب الدين دورا محوريا في الأزمات الكبرى وكيف يجري استدعاؤه والاحتماء بنماذجه في التحديات التي تُهدد التوازن الشخصي أو الاجتماعي ففي مثل هذه الحالات يُمثل الدين طاقة معنوية هائلة لشحن الحقل الثقافي ، وبعد كل ما تمَ عرضه بانت بشكل جلي وبما لا يعتريه ريب قوة العلاقة بين الدين والثقافة وشدة الترابط بينهما إلى درجة أنَه يمكن القول باستحالة الفصل بينهما لئلا حدثت فجوات في المجتمع وفقد توازنه جراء الإختلالات في مظاهر الحياة بأشكالها المختلفة وبشقيها النادي والمعنوي، فما من مجتمع يسعى إلى ولوج عالم الحضارة والرقي إلا و لابد أنْ يعتمد على كلا هذين المقومين بمعناهما النبيل طبعا ليدرك أولا المغزى من وجوده وثانيا ليكسب القوة لذلك.

5. خاتمة:

عصارة الحديث بعد مجمل المعطيات و الأفكار التي سبق وأشرنا إليها وتضمنتها عناصر هذا المقال يمكنا القول أن الدين كظاهرة فطرية وكأساس من الأسس الفكرية للمجتمعات الإنسانية المتجاوزة لملابسات الزمن والبيئة لها علاقة جد وطيدة مع الثقافة باعتبارها مكون رئيس من مكونات حياة الإنسان نابع من طبيعته ووليد حاجة غريزية أصيلة في نفسه لم يستطع الاستغناء عنه منذ

حقب موغلة في التاريخ ، وقد ثبت في كثير من المجتمعات أنهما على إرتباط وثيق وقريب دوما فإذا ما كان الدين الذي يعبر عن رؤية للعالم ويقدم تصورا لبناء المجتمع في أدق تفاصيله يؤدي دورا بارزا في حضارة الإنسان ،فإن الثقافة كذلك تسهم في الاستثمار اللائق لفعاليات الحياة المادية والمعنوية للأفراد والتي تنشأ من أسلوب التعقل الصحيح والعواطف المتسمة بالنبل فتساعدهم في حياتهم الفكرية وتؤثر في تكاملهم ، بالإضافة إلى هذا أنهما تؤثران في بعضهما البعض وتقومان بأدوار تكاملية جوهرها توجيه كل العمليات الاجتماعية بشكل مستمر وكذلك إلزام الأفراد من خلال عمليات التلقين والإرشاد والتنشئة بإتباع النظام الاجتماعي السائد وعقلنة سلوكاتهم ففي الحقيقة ما نراه من تفاعلات بين أفراد المجتمع الواحد وبينهم وبين أفراد المجتمعات الأخرى يكون الدين فيها بما يتضمنه من منظومة معايير يحكم بها على الأشياء ومن أفكار وتعاليم وطقوس فاعل رئيس في حدوثها ، والحال نفسها مع الثقافة بمكوناتها المتعددة التي يتم نقلها وتوارثها من جيل إلى جيل قصد أن يكون هؤلاء الأفراد على مقدرة في الحفاظ على هويتهم أو ذاتهم الأصيلة من جهة ومن جهة أخرى أن يكون تعاملهم سليما للمستجدات والتطورات التي تمس الحياة الإنسانية بشتى مظاهرها، زيادة على هذا فإنَ ممارسة الطقوس الدينية وتوريثها للأجيال الجديدة يجعل منها عادة وثقافة كما أن العمل بالتعاليم التي تدعو إليها الأديان لإصلاح أحوال الناس، والعكوف على ممارستها وتكرارها في حياتهم يجعله مستحقا لإطلاق لفظ "ثقافة" ، فيكون الدين ثقافةً متبعةً يعرف به المتدين فرداً كان أو جماعة وهذا طبعا ليس معناه أن الهيمنة للثقافة على حساب الدين ولا أن الثقافة هي الأصل، بل بيانٌ أن ما يعرف به الفرد ويمتاز به المجتمع بحكم تكراره هو الثقافة، سواء كان الدين أصله أم الخبرة البشرية والتراكم التاريخي، فالطقوس والشعائر في كل الأديان على إختلافها هي جزءٌ من الثقافة ولعلنا لا نبالغ إذا ما قلنا أنَها من أهم عناصر الدين الشيء الذي يجعل علاقتهما وطيدة تصل أحيانا إلى التكامل بحيث إن حاجة الدين شديدة إلى قوة الحرية كما تتجلَّى في الثقافة الحية للمجتمعات وبالمقابل حاجة ثقافة هذه المجتمعات ماسة إلى يقين الدين وشفافيته كما هي في الفكر الديني الأصيل.

6. قائمة المراجع:

1- هيجل جورج فريدريتش، **موسوعة العلوم الفلسفية**، ترجمة: إمام عبد الفتاح ، دار التنوير، بيروت،1983، ط1، ص48.

2- نجوان نجاح ، **فلسفة الدين** ، مركز الدراسات الاستراتيجية ، بيروت، ط1 ،2009، ص73.

3- حلمي سالم، **الدعوة الإصلاحية الإسلامية ومنهجها** ، مجلة رواق عربي، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، مصر، السنة الثامنة ، عدد22. 2002،ص92

4- أحمد الخشاب، **علم الاجتماع الديني**، مكتبة القاهرة الحديثة، مصر،1984، ص75.

5- الخريجي عبد الله ، **علم الاجتماع الدين**، ط2، جدة، رامتان.ط2، 1999،ص30.

6- فراس السواح، **دين الانسان ـ بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني ـ** ، منشورات علاء الدين ، ، دمشق.،ط4، 2002،ص27.

7- عبد الغني عماد، **سوسيولوجيا الثقافة ـ المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة**، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ط1، 2007، ص157.

- 8 زيدان عبد الباقي، **علم لاجتماع الديني**، مكتبة غريب، مصر، 1981، ص29 .

9-Emile Durkheim , **les formes élémentaires de la vie religieuse** , puf, France , 1979, p370

10- السيالوطي نبيل، **بناء المجتمع الإسلامي ونظمه ـ دراسة في علم لاجتماع الإسلامي ـ** ، دار الشروق، جدة. 1998، ص24.

11 - عبد العزيز خواجة، **مبادئ التنشئة الاجتماعية** ، دار الغرب، الجزائر. 2005،ص207.

12- خليل أحمد خليل، **سوسيولوجيا الجمهور السياسي الديني في الشرق الأوسط المعاصر**، المؤسسة العربية للنشر، بيروت. ط1، 2005، ص10.

13-محمد الصاوي علي، **نظرية الثقافة**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1999،ص9.

14- ميلفيل.ج سكوفيتز، **أسس الأنتروبولوجيا الثقافية**، ترجمة: رياح النفاخ، وزارة الثقافة، دمشق 1973،ص11.

15- بن نبي مالك ، **مشكلة الثقافة** ، دار الفكر المعاصر ، لبنان، ط1984،4،ص25.

16- دوني كوش، **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية**، منشورات إتحاد الكُتاب، دمشق،2002،ص46.

17- عبد الغي عماد ،مرجع سبق ذكره،ص 116.

18- إليوت توماس، **ملاحظات نحو تعريف الثقافة** ، ترجمة: شكري محمد عياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية، 2001،ص43.

19- محمد رياض، **الانسان دراسة في النوع والحضارة** ، هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة.2012.،ص524.

20- توماس إليوت،نفس المرجع،ص23.

21- أوليفييه روا، **الجهل المقدس زمن دين بلا ثقافة** ،ترجمة: صالح الأشمر، دار الساقي ، ط1، بيروت. ط2002،1 ،ص53.

22- جفال عبد الإله ، **المقدس وحدود العقل حوار بين أرنست كاسيرر ورودولف أوتو** ، ، مجلة الناصرية للدراسات الإجتماعية والتاريخية ، جامعة معسكر ،المجلد 9، العدد1 ، 2018م، ص141.

23- مالك بن نبي، مرجع سبق ذكره،ص35.

24- شكيب أرسلان، **لمادا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم** ، دار مكتبة الحياة، لبنان، ط2، **دت** ،ص139.

25- نفس المرجع، **ص**41.

26- اوليفيه روا، **مرجع سبق ذكره، ص**104.

27 - إليوت توماس، مرجع سبق ذكره ، **ص**47.

28- نفس المرجع، **ص** 176.